الفُكَاهَة

أنواع الفكاهة

كلمة الفكاهة من الكلمات التى حار الباحثون فى وضع تعريف دقيق لها، والسبب فى ذلك كثرة الأنواع التى تتضمنها واختلافها فيما بينها، إذ تشمل السخرية واللذع والتهكم والهجاء والنادرة والدعابة والمزاح والنكتة و«القفش» والتورية والهزل والتصوير الساخر «الكاريكاتورى».

والسخرية أرقى أنواع الفكاهة، لما تحتاج من ذكاء وخفاء ومكر، وهى لذلك أداة دقيقة فى أيدى الفلاسفة والكتاب الذين يهزأون بالعقائد والخرافات. ويستخدمها الساسة للنكاية بخصومهم وهى حينئذ تكون تهكمًا أو تقريعًا خالصًا. وقد تستخدم فى رقة استخدامًا لاذعًا إذ يلمس صاحبها شخصًالمسا رفيقًا كأن يرى مثلاً

مؤلفًا لكتاب من كتب مدارس الروضة ملأه بالرسوم والشخوص، فيقول له: إنه كتاب كلاسيكى، يقصد أن ثياب الشخوص ليست عصرية. وعلى ذلك فاللذع والتهكم والتقريع من ألوان السخرية.

وعلى عكس ما نجد فى اللذع من رقة يكون الهجاء، إذ يعبث صاحبه بمن يهجوه عبثًا ليس فيه رقة ولا خفة، بل فيه الفظاظة والخشونة، فصاحبه لا يهمه شعور الضحية المسكينة التى يعتدى عليها، إنما يهمه أن يخنقها خنقًا وأن يبلغ من ذلك الغاية. ومن أطرف صور الهجاء « كتاب الفاشوش فى حكم قراقوش » محافظ القاهرة لعهد صلاح الدين، فقد وضعه ابن مماتى فى هجائه وبيان مظالمه وصوَّر ذلك فى صور مضحكة.

والنادرة هى الخبر القصير أو القصة القصيرة التى تضحك، وفى العادة تكون مكتوبة، وكتب الأدب العربى والمصرى جميعًا تمتلىء بنوادر كثيرة، فيها أخبار عن المعلمين والقضاة ورجال الشرطة والبخلاء وغيرهم.

أما الدعابة فأخف ألوان الفكاهة، وهى فكاهة الأشخاص الوقورين، إذ يقولون ما يدعو إلى الابتسام الخفيف لا إلى الضحك العالى. والمزاح خطوة بعد الدعابة نحو الضحك أو نحو الابتسامة العريضة، وهو لا يحمل خبثًا ولا سما، وإنما يحمل المرح والشعور بالابتهاج.

والنكتة فكاهة المجالس، ولابد لها من اثنين على الأقل، إذ

ينتهز أحدهما كلمة لصاحبه فيمدها، أو قل يمد فكرتها إلى حيث تعبر عن نقيض ما يريد. فيحس كأنه صاحبه أو محدثه ينصب له أشراكًا ليقع فيها. وهو يعتمد فى ذلك على ما يسمى فى عاميتنا باسم «القفش» كما يعتمد على التورية فى الألفاظ. ويستمد صاحب النكتة دائمًا من سرعة البديهة وخفة الروح، فيقصد إلى مغالطة صاحبه فى ألفاظه أومدها كما نقول وكأنه يسرقه أويسرق منه كلماته. ويضحك الحاضرون لهذه السرقة العلنية المكشوفة التى تقوم على المناورات اللفظية.

وإذا بالغ الشخص فى مغالطاته، ولم يعتمد على ثان يجرى عليه هذه المغالطات، بل استغرق هو نفسه فيها، حتى خرج إلى لا منطقية خالصة كان ذلك هو الهزل بعينه، إذ نرى شخصًا يتكلم، وكأنما ألغى عقله إلغاء، فيسوق بدهيات فى شكل معلومات خطيرة مثلًا، أو يخلط فى كلامه تخليط النائمين أو الغافلين. ومن خير الأمثلة لذلك «كتاب نزهة النفوس ومضحك العبوس» لابن سودون الذى عاش فى عصر المماليك حيث نرى السلالم المنطقية فى كلامه تنقلب رأسًا على عقب.

وهناك ضرب من الفكاهة لا يعتمد على كلمات ولا على حروف، وإنما يعتمد على الألوان والخطوط والظلال والأضواء، وقد شاع فى القرنين الأخيرين بأوربا، ونقلناه عنها، وكان لنا منه حظ فى

عصورنا القديمة، ونقصد التصوير الساخر «الكاريكاتورى» الذى يقف عند جوانب الضعف فى جسد شخص أوفى وجهه، ويكبرِّها كأنما يريد أن ينمِّى الضعف أوالعيب الذى يكمن فيه إلى أقصاه، فنراه ينتهز فرصة، مثل تقويس حاجب، أوانحناء أنف، أوتجعد جبهة، أوانتفاخ خد، أوطول ذقن، أوضيق عين، ويكبِّر ذلك مشوِّها ومستغلاً للطبيعة والخلقة. وبذلك تصبح الصورة الساخرة قوية التعبير عن صاحبها، لما أظهره الرسام فيها من تنافر فى أوضاع الجسد أوالوجه.

الضحك وأسبابه

هذه الألوان والأنواع المختلفة من الفكاهة إنما ترجع طرافتها إلى أنها تسبب لنا الابتسام أو الضحك، فتغمرنا موجة من السرور، ونحس بنشوة بهيجة. وتساءل الفلاسفة كثيرًا عن علة الضحك، ولماذا كان مظهرًا للسرور والفرح، وكثرت إجاباتهم، فمن قائل إنه صنيع فسيولوجى مادى يتصل بانتقال الشعور انتقالاً مفاجئًا من الأعصاب إلى العضلات، ومن قائل إنه صنيع نفسى ينشأ من إفراغ التعب الذى يصيبنا فى الحياة، إذ يخرجنا المضحك من حياتنا الجادة المجهدة، فنشعر بالراحة ونضحك. ويزعم آخرون أنه انفجار يحدث من انتظار أومن جهد يتحول فجأة لا إلى شىء، بل إلى فراغ مطلق، وكأن النتيجة غير المنتظرة هى التى تدفعنا دفعًا إلى أن

نضحك ونغرق فى الضحك بمقدار بعدها عنا ومفارقتها للمقدمات التى تسبقها.

ولبرجسون الفيلسوف الفرنسى المشهور كتاب فى الضحك بناه على نظرية طريفة هى أننا نضحك على الأشخاص ومنهم، لما أصابهم من تحول أخرجهم عن طبيعتهم العادية المألوفة لنا، إذ نراهم قد تصلَّبوا، وخرجوا عن عقولهم، وأصبحوا كأنهم آلات، فهم لا يتصرفون تصرف الإنسان الحر المختار، وإنما يتصرفون تصرف الآلات الصلبة التى لا تملك حرية ولا اختيارًا. وهو يبدأ كتابه بأننا لا نضحك إلا على أشخاص، فنحن لا نضحك من حيوانات ولا من أشياء فى الطبيعة. وليس ذلك فحسب بل لابد أن نكون هادئين تمام الهدوء حتى نصبح صالحين للضحك، أما إذا كنا فى حالة انفعال فإننا لا نسر حينئذ ولا نضحك، إنما نسر ونضحك حين نكون فى حالة عدم اكتراث أو عدم مبالاة، وأيضًا لابد أن نتصل بآخرين لنضحك، فإذا كنا منفردين أو فى عزلة لم نتذوق الضحك، إنما نتذوقه ونغرب فيه حين نكون فى مجتمع أو مع عدة أشخاص.

وأخذ يستعرض فنون الفكاهة ويطبق عليها نظريته الأساسية تطبيقًا دقيقًا لا نقرأه حتى نؤمن بصدق هذه النظرية الطريفة وأننا إنما نضحك من الناس وعليهم حين نراهم أمامنا، وقد فارقوا سلوكنا فى الحياة الذى يدل على اختيارنا وإرادتنا وتصرفوا تصرف الآلات، فلم يعد لهم منطقنا، إنما أصبح لهم منطق الآلة، أو قل

أصبحوا كأنهم لعب تحرَّك بأسلاك سواء فى أوضاع الجسم وحركاته أو فى أوضاع الكلمات ومدلولاتها، وارتباطها فيما بينها. والمجتمع يضحك من هذه اللعب لخروجها على منطقه، فضحكه قصاص عادل لها، لأنها شذت عليه، وتصرفت فى القول أو فى الوضع تصرفًا لا يألفه، فهو يؤدِّبها بضحكه منها. فالضحك عقاب وقصاص وتأديب، ينتقم به المجتمع ممن يتطاولون على منطقه ومعقوله.

وأياما كان السبب فى الضحك، فالناس يضحكون دون أن يعرفوا لماذا يضحكون، وهو ضحك يريح أعصابهم ويشرح صدورهم، ويقوِّم أخلاقهم، ويشعرهم بشىء من الصلة فيما بينهم، ويجعلهم يحافظون على تقاليدهم وأوضاع مجتمعهم، ويربى فيهم ملكة النقد، ويوقظ فيهم التنبه إلى أخطائهم وأغلاطهم.

وهم يضحكون من كل ما يحسون فيه مخالفة للمألوف، يضحكون من الممثل الهزلى وإشاراته وحركاته، ويضحكون من الصور الساخرة «الكاريكاتورية» ويضحكون من المغفل والجاهل والبخيل والجبان، ويضحكون ممن يقلدون أصوات الحيوانات وممن يحاكون القردة والنسانيس، ويضحكون من المفارقات ومن الهزل الذى يؤدى إلى فوضى الكلام وكأن العقل قد نُوِّم، ويضحكون من الهجاء والسباب والشتم، ويضحكون من النوادر والنكت والمزاح. ثم هم يضحكون ضحك ازدراء أو ضحك إعجاب أو ضحك سخرية أو ضحك هزل أو ضحك انتصار أو ضحك عطف. فصور الضحك

أوقل صور الفكاهة ومنابعها كثيرة.

والأمم تختلف فى إنتاجها وقدرتها على تذوق ضروبها المختلفة. والمصريون من أكثر الأمم ميلاً إلى الفكاهة، ومن هنا كان أدبهم غنيًا بألوانها، وخاصة ما اتصل بالنكت وخفة الروح.